***

المرأة في أدب طه حسين رواية "على هامش السيرة " نموذجا

مبشر أحسن
باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة كشمير، سرينغر

الحمد لله الذي جعل للرجال من أنفسهم أزواجا ليسكنوا إليها وجعل بينهم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين القائل استوصوا بالنساء خيرا، وبعد.

المرأة شقيقة الرجل، ولها مكانة رفيعة لا في حياته فحسب، بل في حياة العالم الإنساني كله، وهي التي زين بها الله حياة الرجل ودنياه، إذ تصاحبه وتكاتفه في كل مجال من مجالات الحياة، وتواسيه وتؤانسه في أيام الهم والحزن والقلق، كما تشاركه في أيام السرور والفرحة والبهجة. وعلى هذا فقد منحها الله حقوقا في الحياة، وجعل لها مثل الذي عليها، وجعل للرجل عليها درجة. ولكن ربما يكون الرجل ظالما؛ فبدلا من أن يعوضها إحسانا، فقد يصبح قاهرا عليها، يسلب حقها، ويذيقها أنواعا من الشدة والعنف، وصنوفا من القسوة والظلم، ويهجرها لوحدتها، حتى يطلّقها لأمور تافهة، وهي تذيقه صنوفا من اللذة والراحة والمتعة، وتفتح له أبواب الشفقة والرأفة والحنان، كما تفتح له أبواب القلب، ونوافذه، وتفديه بعواطفها، وأمنياتها، وأحلامها حتى تفديه بنفسها، فيا للعجب...!

فقد ظلت المرأة طوال القرون السابقة في الثقافات المختلفة تطحن في رحى كبر الرجل وغروره، وتعاليه عليها، سواء أكانت في الحضارات الشرقية أو الغربية، أو الديانات المختلفة من اليهودية والنصرانية والهندوسية والمجوسية. ولم تزل على مر العصور القديمة والوسطى حتى في العصر الحديث والمعاصر تعامَل معاملة مخلوق مبتذل ذا مرتبة ثانية؛ فلا تستحق أن يكون لها حقها الملائم بها في شتى مجالات

الحياة، بل يعتبر ارتفاع صوتها ضد القهر والظلم، واستبداد الرجل عليها طغيانا وحربا ضد المجتمع، وأما المرأة الحديثة في مجتمعات غير قليلة من أوربا وأمريكا وغيرها من البلاد الصناعية، فأصبحت علامة إشهار البضائع، كما تتخذ آلة للأغراض التجارية.

وأما المرأة المعاصرة في البلاد العربية فلم تختلف أحوالها عن أخواتها في البلاد الشرقية الأخرى، حيث حرمت من حقوقها وغلقت عليها أبواب السعادة، حتى لا تتنفس في الهواء الطلق، كما لقيت أنواعا من الإساءات... التي تحدث عنها كثير من بنات العرب من أمثال عنبرة السلام الخالدي[١]، وهدى شعراوي التي أثارت في مذكراتها قضايا المرأة وظلم المجتمع لها[٢]، والدكتورة لطيفة الزيات، وذلك في "أوراق شخصية: حملة تفتيش"[٣]. ونوال السعداوي التي تنقل لنا مشاكل المرأة في المجتمع العربي الذي ميز الرجل بسلطة على المرأة[٤]، وإتاحة فرصة ليقهرها[٥]، وذلك في "أوراق حياتي". كذلك عالجت ليلى عثمان وغادة سمان قضايا المرأة من التميز الجنسي، والقهر الاجتماعي، والسياسي الذي يمارسه الرجل عليها... إلى الخ. كما قاوم هذا الوضع كثير من كبار كتاب العرب من أمثال محمد حسين هيكل، في كتابيه "زينب" و"هكذا خلقت"، ويحيى حقي، وطه حسين عميد الأدب.

أما طه حسين فقد أولى المرأة وقضاياها اهتماما بالغا في كتبه وخاصة في روايته " على هامش السيرة"، حيث عرض الجوانب المختلفة لها والقضايا التي تواجهها في

---

١. الأديبة الأردنية والفلسطينية كاتبة للسيرة الذاتية" لأسامة يوسف شهاب دراسات العلوم والاجتماعية، المجلد ٣٦، (ملحق) ٢٠٠٩.

٢. مذكرات هدى شعراوي، مؤسسة هنداوي.

٣. الفتاة المصرية في رواية: الباب المفتوح، (دراسة في البناء الروائي) نشرت في مجلة العلوم الإنسانية الدولية ٢٠١٢ العدد ١٩(٢) ص: ١١٩-١٤٧

٤. انظر للتفصيل: نوال السعداوي حول المرأة العربية والمشاكل الاجتماعية: مجلة المستقبل العربي (مركز البحوث العربية ١٩٨٠)، ص: ١٢٣

٥. جورج طرابيس: أنثى ضد الأنوثة، دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء تحليل النفسي، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط: ١، ١٩٩٥، ص: ٣٩

حياتها؛ إذ تحدث عنها مبرزا لإسهاماتها المشرقة في الحياة الإنسانية، ودورها الريادي في المجتمع البشري، كما قام بتصوير إساءات عديدة تلقتها المرأة من قبل الرجال. فرأيت من المناسب أن أجمع للقارئ قطرات من ذلك البحر ههنا، وحتى لا يجد كآبة أو تتطرق إليه السآمة فقد قسمت المقال إلى عناوين تناسب مع مواقف المرأة العديدة من كونها أما وأختا وزوجا وما إلى ذلك، وأكثرت من نقل كلام طه حسين لأنه المحل الشاهد الأصلي، ولأنه أدل على المقصود. فأقول وبالله التوفيق:

١- تقديم المرأة كزوجة ذكية

لم يلبث طه حسين أن ذكر المرأة في الصفحات الأولى من كتابه، كزوجة عاقلة، تجد بعد الزواج عكس ما كانت تحلم به، فلا تصبر أن ترى زوجها كئيبا يعاني مشاكل الحياة وحده. وزوجها على عكسها لا يبالي بها ولا يشاركها في أمره لأنه لا يرى فيها إنسانا يساعده على إيجاد الحل لمشكلته، فيظهر طه حسين بقوته الأدبية، وصياغته الذهبية، وأسلوبه الممتع، بأن المرأة فيها صلاحية إيجاد الحلول لقضايا الحياة، وليس الرجل وحده من يملك هذه القدرة. فقد صور هذه المرأة قائلا: ومضى الفتى إلى أهله. فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى، فاستقبلته دهشةً وهي تقول: إيه يا شيبة! ما خطبك؟ إني لأنكرك منذ أيام، أراك مؤرَّق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير ... فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين: عزيز عليَّ يا سمراء ما تجدين من حزن .... ولكنَّ قوة خفية عاتية طاغية تملك عليَّ نفسي، وتأخذ عليَّ كل سبيل وتدفعني إلى حيث لا أدري ولا أريد. .... قالت سمراء: هون عليك ولا تغلُ في الخوف ولا تسرف في الإشفاق. ما أكثر ما يلمُّ أمثال هذا اللطف بالناس عندنا في البادية، فلا يحفلون ولا يأبهون. ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة في غير توسط للكاهن ولا توسل به؛ قم فضحِّ لهم، وقرِّب إليهم، فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون، وسيغيظ ذلك قومًا من قريش.[١]

[١]. حسين، الدكتور طه: على هامش السيرة، ص: ١٩. (المجموعة الكاملة، طبعة الهنداوي بالقاهرة).

يلقن طه حسين في هذا المقطع بأن زوجة عبد المطلب كانت وفية لزوجها، وزكية؛ تشعر كآبته وحزنه وتقدر على حل مشاكل زوجها، وتشير عليه بمشورة حسنة.

٢- تقديم المرأة كحاكمة بصيرة

يذكر طه حسين بأن قريشا وقبائل أخرى نازعت عبد المطّلب على ماء زمزم، فاحتكموا إلى امرأة كاهنة في مُعان بالشام، كما قال طه حسين "وكاد الشرُّ يقع بين القوم، ولكن عبد المطلب قال يا قوم فيم قطع الأرحام، وخَفر الذمام، وإراقة الدماء! إني والله ما أوثر نفسي من دونكم بشيء. فإن أبيتم أن تؤمنوا لي فهلمَّ إلى حكمٍ فليقض بيننا. قال الملأ من قريش: لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه، فليكفَّ بعضكم عن بعض، ولنحتكم إلى كاهنة بني سعد هُذَيم، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم. وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام؛ فأجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة في مُعان".[١] وهنا يصور طه حسين المرأة في صورة الحاكمة بين عقلاء الناس.

٣- تقديم المرأة كالأم

لقد صور طه حسين المرأة في صورة الأم مرارا، ومنها حين تحدث عن أم النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أثناء ذلك عادة شعبية اجتماعية وهي: أن النساء يجتمعن في بيت المرأة الحامل ساعة المخاض، ويعملن بكل جد وجهد في تسهيل أمور الولادة وما يتبعها، فيقول ".....على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود، حتى.... أحست بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن المخاض. هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بني هاشم، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء. أنكرن حتى أنفسهن؛ فقد رأين ما لم يرَ أحد، وسمعن ما لم يسمع أحد، وأحسسن ما لم يحس أحد".[٢]

وفي هذه العبارة اللطيفة ينوه الدكتور بدور المرأة في المجتمع، وصلاحية عملها خاصة في ذلك المجتمع الذي لا توجد فيه المستشفيات ولا الإسعافات ولا الأطباء،

---

[١]. على هامش السيرة، ص: ٢٨.

[٢]. نفس المصدر، ص: ١١٧-١١٨.

وإنما هو تعاون وتعامل وإسعاف فيما بين الناس، وسوآء فيه أهل الريف وأهل المدينة، حتى وضعت آمنة كما تضع كل أنثى".[١]

٤- تقديم المرأة كمرضعة

ذكر طه حسين بأن المرأة التي قامت بحضانة النبي هي أم أيمن، فذكر من أنسها بهذا الطفل، وحنانها عليه، وحبها وإخلاصها ورعايتها له فكانت هي أمه الثانية. على حد تعبير المؤلف "لقد خلص الطفل لحاضنته من دون الناس... ليس له من يرعاه أو يكلؤه إلا قلبها العظيم الكريم. من ذلك الوقت أصبحت للطفل أمّا، رعته صبيّا وشابا، فرغت له ولم تشغل عنه بأحد ولا بشيء ".[٢] كذلك يصف المرأة كمرضعة في موضع آخر...تحت عنوان: "المراضع"، فيصف ظاهرة اجتماعية كانت فاشية في المدن، وهي أن أهل المدينة كانوا يرسلون أطفالهم الرضع إلى البادية فكانت ترضعهم نساء أهل الريف والقرى، ومهما كان لذلك من السبب إلا أن أكبر المبررات لهذه العملية هو وفاء وصدق نساء البادية وعطفهن على الأطفال وكمال حبهن، وحسن رعايتهن لهم. وقامت بهذا الدور بنت ابن أبي ذؤيب وهي حليمة السعدية التي أسندت إليها آمنة بنت وهب رضاعة ابنها، للمرة الثانية، كما يصور الموقف الدكتور طه قائلا: ثم تهم حليمة أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبد المطلب، وأرضتها آمنة وعبد المطلب، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حبّا له وحدبًا عليه، ورغبة في استبقاء ما وجدت في استصحابه من خير؛ فتلح على آمنة أن ترده معها إلى البادية، هناك حيث الهواء النقي، والسماء الصافية، والحياة الهادئة البريئة، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد. وتجيبها آمنة إلى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها، وضحت بلذة الأمومة في سبيل تنشئ ابنها تنشيئًا صالحًا. وهل عرفت آمنة إلا التضحية! وتمضي حليمة بالصبي راضية، وتبقى آمنة في مكة محزونة. وتنظر بركة إلى حليمة نظرات فيهن

---

[١]. هيكل، الدكتور محمّد حسين، حياة محمّد، ص: ١٢٥.

[٢]. على هامش السيرة، ص: ١٢٦.

الحسد. وتنظر بركة إلى آمنة نظرات فيهن اللوم.[1]

٥- تقديم المرأة كعاشقة الحرية

المرأة بطبيعتها لم تخلق لتكون خادمة للرجال، فهي لا تحب الرق والعبودية، بل تحب الحرية اللائقة بها، لكنها تعجز عن تنفيذ إرادتها، ولقد صور طه حسين المرأة التي أصبحت خادمة رغم أنفها، فقال: "هذه الأمة الحبشية... لم تأنس إلى رقها.... فهذا شبابها يذبل، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق. وهذه آمالها تبتر بترًا، وهي محزونة النفس كاسفة البال، لا تبتسم إلا متكلفة ولا ترضى إلا متصنعة، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق، فهي نظرات السادة الذين لهم أن يبيعوها وإن لم تؤثر أن تباع.[2]

٦- تقديم المرأة كأخت شجاع

لا شك في أن الأخت تحب أخاها، وتفديه بمالها ونفسها، وهذا عين ما وصف به طه حسين المرأة العربية حيث حكى قصة عبد المطلب بوفاء نذره الذي كان يقتضي منه أن ينحر أحد أبناءه قائلا "خرج القدح على عبد الله؟ فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفي يده المدية. ولكن بناته جميعًا وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بني مخزوم، ويستصرخن قريشًا كلها، ويمنعن الفتى بحياتهن. وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعةً ثائرة معًا فقالت: إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر، فلا ترقَّ لابنك الشاب، ولا لأمه الشيخة، ولا لأخواته البائسات... فدعنا نحتكم في هذا الفتى إلى رب هذا البيت؛ فهو أوسع منك رحمة... وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزنًا، وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهي تبكي، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح: لأموت، قبل أن تموت! فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حينًا وتخاشنه حينًا، حتى اضطرته أن يقبل تحكيم الآلهة".[3]

---

[1]. على هامش السيرة، ص: ١٣٥.

[2]. نفس المصدر، ص:١٢٣-١٢٤.

[3]. نفس المصدر، ص: ٣٥-٣٦.

٧- تقديم المرأة كصاحبة متعاطفة

إن الحب والود بين الزميلات والصديقات مما جُبل عليه عالم النساء، وهكذا يصور طه حسين سمراء وصاحبتها الضرة لها فاطمة، وذلك حين خرج القدح على ابنها عبد الله، وتقرر ذبح عبد الله، نسيت سمراء كل ما بينها وبين فاطمة أم عبد الله من المنافسة، والصراع الذي يكون بين الضرات، وقالت لإمائها "لا مُقام لنا الآن، لنسرع إلى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون.... حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان، إحداهما هالة بنت وهيب أم حمزة وزوج عبد المطلب، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب. هنالك أقبلت سمراء هادئةً باسمة إلى الفتاة، فكفكفت من دموعها، ضمتها إليها وقبلت جبينها الطلق. ثم التفتت إلى عبد الله وهي تقول "هلمَّ يا فتى فقبل أهلك، فمهما تغللها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرفتها حزنًا عليك. ثم نظرت إلى فاطمة وهي تقول: ألا ترين أنها أحقُّ فتيات قريش أن تكون له زوجة"؟[١] فلم ترجع حتى ربطت عبد الله وآمنة بنت وهب في رابط الزواج، وهذا من كمال رعايتها لضراتها، وهذه صفة الصاحبة المتعاطفة الناصحة. وقد صورها طه حسين ههنا في عبارة عذبة الرائعة.

٨- تقديم المرأة كتاجرة متعاونة

لقد وصف طه حسين دور المرأة في إثراء الرجل في قالب أدبي ممتاز، وذلك حين تحدث طويلا عن خديجة وعن مالها وتجارتها، وكيف كانت تدير شؤون تجارتها خارج مكة في بلاد نائية مع أنها جالسة في بيتها لا تخرج منه، وكيف كان لها الدور البارز في التعاون مع فقراء أهل مكة؛ ترسلهم في تجارتها حتى يكسبوا المال، ويكفلوا به أهلهم وذويهم. ويذكر طه حسين بأن المرأة هي التي أصبحت سببا في إثراء محمّد صلى الله عليه وسلم حين كان يرعى غنم أهل مكة على قراريط، فأحزن ذلك خديجة فأرسلت إلى أبي طالب كفيل محمّد بأنها ترغب أن ترسل محمّدا في تجارتها هذا العام وذلك على

---

[١]. على هامش السيرة، ص: ٣٧ .

ضِعف ما كانت ترسل عليه غيره.[1] ولا شك في أن طه حسين أظهر بهذا مكانة المرأة القوية في المجتمع، وأنها ليست عاجزة عن التعاون في حياة الرجل، بكونها تاجرة ثرية سخية وفي نفس الوقت غير سافرة وذات عفة وأمانة.

٩- تقديم المرأة كمُصلحة غيورة

كذلك قام طه حسين بوصف دور المرأة في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك حين نال (سبّ) أبو جهل من النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت امرأة تلك الشتائم فأبلغت الخبر إلى حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك سبب إسلام حمزة، "الرجل" الذي عرف في الإسلام بلقب سيد الشهداء ولا شك في أن هذا دور عظيم وريادي جدا لعبته هذه المرأة التي لم تتحمل سماع نباح أبي جهل، حتى أعلمت بذلك حمزة بن عبد المطلب. ففي هذا من الدفاع عن عرض النبي وعن دينه ودعوته، كما يقول طه حسين "وقد أقبل ذات يوم فأنبأته امرأة بنبأ عظيم تغيرت له حياته كلها. كانت هذه المرأة مولاة لعبد الله بن جدعان، وأكبر ظني أنها كانت صاحبة دعابة وغزل .وأكبر ظني أن أبا جهل حين وقف إليها إنما وقف مداعبًا مغازلًا طامعًا منها في شيئ مريب. ويمر النبي صلى الله عليه وسلم فتمتلئ نفس أبي جهل غيظًا لمرآه على ما كان يضمر له من بغض وقلى. وإنه لفي موقفه هذا المريب الذي لا يحسن بالأشراف من قريش إذ أخذ يؤذي النبي في نفسه بأشنع القول وأبشعه ..... ويقبل حمزة من صيده متوشحًا قوسه مبتهجًا بما أصاب من لذة وما أنفق من نشاط، فيمر بهذه المرأة في طريقه إلى المسجد، وإذا هي تقفه، وإذا هي تنبئه بما رأت وما سمعت، فيسمع منها...."[2]

ولكن من العجيب أن يكون طه حسين قد أساء إلى هذه المرأة وذلك حين وصفها صاحبة الدعابة والغزل، بدلاً من أن يصفها بالغيرة، وبنصرة النبي صلى الله عليه وسلم. ولا شك في أن موقف طه حسين مع هذه المرأة موقف سلبي بحت لا يتناسب مع حوادث القصة ولا يليق بالمؤلف.

---

[1]. المصدر السابق، ص: ٢٣٣- ٢٣٤ بالتصرف.

[2]. المصدر السابق، ص: ٣٤٧.

خاتمة:

وهذه بعض نماذج من تصوير طه حسين للمرأة، فلقد أفاد وأجاد حين أظهر عدة نواح مشرقة من حياة المرأة في قالب قصصي رفيع الطراز، فإنه حقا "يتخذ من السيرة النبوية وما فيها من أحداث وأشخاص مادة لقصص رائع". [1] كما يثبت بأن المرأة لم تخلق لخدمة الرجل وليست هي كمخلوق ذو مرتبة ثانية، بل إنها خلقت لأداء دور كبير في المجتمع البشري، وتتصف بالخصال المحمودة مثل ما يتصف بها الرجل، ولها القدرة على حل المشاكل والقضايا الاجتماعية؛ لمؤهلاتها الذهنية والعلمية والتجارية. فهي زوجة وفية، وأخت شجاع، وتاجرة متعاطفة، وإضافة إلى هذا كله فلها المَلكة القوية على تربية الجيل الناشئ؛ هي أم حنون وعلامة تضحية في الأرض، لذا قال النبي عليه السلام: "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ..." [2].

هذا وصلى الله وسلم على خير خلقه محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

[1]. ضيف: د/ شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص: ٢٨٢.

[2]. صحيح البخاري. حسب ترقيم فتح الباري (٣/ ١٥٧)، رقم الحديث: ٢٤٠٨ .